دراسة حول القصور في بلاد الشام

في الممالك القديمة وعلاقتها بالبيئة والحضارة

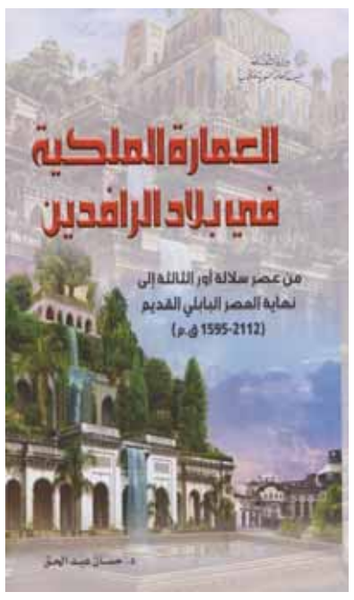

| سوسن صيداوي

حضارة بلاد الرافدين.. حضارة أصيلة بمعنى أنها لم تكن مستنسخة عن غيرها من الحضارات. وقدمت الكثير من الإنجازات في مختلف الميادين (الكتابة، الفن، العمارة، العلوم، القانون.... إلخ) خلال عصورها التاريخية التي تبدأ مع نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق. م.

وأكثر ما يهمنا الحديث عنه هو الفترة التي تمتد من عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٢ | ٢٠٠٤ق.م)، إلى نهاية العصر البابلي القديم(٢٠٠٤ | ١٥٩٥ق. م) فلقد حدث خلال هذا العصر تطور كبير على صعيد المؤسسة الملكية. وبالنسبة إلى مصطلح بلاد الرافدين أو بلاد ما بين النهرين لأول مرة، فلقد استُخدم في اليونان، والمقصود به المنطقة الواقعة في حوض الرافدين بين نهري دجلة والفرات، والتي تشمل العراق بحدوده الحالي وشمال شرق سورية. هذه المنطقة التي تقسم إلى منطقتين رئيسيتين:المنطقة الجنوبية والمنطقة الشمالية. وللمزيد سنورد لكم تفاصيل أكثر وردت في البحث:العمارة الملكية في بلاد الشام... من عصر سلالة أور الثالثة، إلى نهاية العصر البابلي القديم (٢٠٠٤ | ١٥٩٥ق. م) لمؤلفه د.حسان عبد الحق والصادر عن الهيئة السورية العامة للكتاب.

الهدف من البحث

أوضح د. حسان عبد الحق في مقدمة كتابه أن هذه الدراسة تسعى لتحقيق العديد من الأهداف، مشيراً أن من بينها تحديد وتوضيح الوظائف الرئيسة للمباني الملكية الرافدية والتي تعود إلى المدة الممتدة من عصر سلالة أور الثالثة، إلى نهاية العصر البابلي القديم خاصة، والقصور الأخرى داخل بلاد الرافدين وخارجها، التي تؤرخ بفترات مختلفة من عصر البرونز. متابعاً: إن هناك هدفاً آخر يتجلى في إظهار التشابهات والاختلافات بين القصور الرافدية التي درسها سابقاً العديد من علماء الآثار وبين القصور التي اكتشفت حديثاً نتمنى من خلال ذلك إنتاج عمل علمي جديد، يحقق المنفعة العلمية للباحثين في هذا المجال، يضاف إلى الأعمال الأخرى التي تزخر بها المكتبات».

متابعاً بمكان آخر: لهذا البحث أهمية في مجال العمارة عامة، وفي مجال العمارة الملكية خاصة، لأنه سيحاول إيجاد أجوبة لكثير من الأسئلة المتعلقة بالعمارة الملكية المؤرخة بالعصر الممتد من نهاية البرونز القديم إلى نهاية البرونز الوسيط. إنها أسئلة لم يستطع الباحثون الإجابة عنها إجابة قطعية بسبب توقف أعمال التنقيب في الكثير من المواقع الأثرية، ما أدى إلى عدم التمكن من الحصول على نتائج جديدة تساهم في حسم الكثير من القضايا. إضافة إلى ذلك دراسات المقارنة التي سيقدمها البحث ربما تساعدنا في إثبات وظائف مختلفة الأجنحة في القصور، وإظهار السمات المعمارية الأساسية لها. وقد لفت د.عبد الحق إلى أن لهذه الدراسات أهمية أخرى تتمثل في إبراز التشابهات والاختلافات بين القصور الرافدية والقصور الشرقية الأخرى، وهو ما يساعد في تحديد المباني الأكثر تطوراً والأعظم مكانة في الشرق الأدنى.

في الأبواب

يتألف البحث من ثلاثة أبواب رئيسة:الباب الأول يتناول دراسة معمارية لقصور جنوبي بلاد الرافدين، ويتألف من خمسة فصول، يحوي كل منها دراسة مفصلة عن أحد القصور، التي رتبت من الأقدم إلى الأحدث: قصر أور، قصر السلالات الأمورية في تل أسمر، القصر والمبنى ٥٠ في لارسا، قصر سينكاشيد في أوروك. وتجدر الإشارة إلى أنه وقبل إجراء الدراسة المعمارية لأي مبنى يحاول د. حسان عبد الحق التمهيد بمقدمة عامة عن الموقع الأثري، متناولاً فيها تاريخه وموقعه الجغرافي وتاريخ تنقيبه وحركة التمدن فيه، وما يجذب الانتباه في هذا القسم من البحث قصر تل أسمر الذي لقي تجديدات كثيرة خلال فترة استخدامه، حيث نتج عنها ست مراحل معمارية تنقسم إلى نوعين: النوع الأول يقدم لنا عدة مراحل معمارية تنسب كل واحدة منها إلى ملك من الملوك، ويعرض لنا النوع الثاني مراحل معمارية أخرى يعود كل منها إلى عدة ملوك وليس إلى ملك واحد.

في حين يفتح الباب الثاني البحث حول قصور شمالي بلاد الرافدين، وقد مضى الباحث في منهجيته المتبعة في القسم الأول. ويدرس هذا القسم سبعة فصول للقصور التالية: قصر ماري الملكي والشرقي الصغير، قصر (A) في توتول، قصر آشور، قصر شامشي أدد وقصر كارني ليم في تل ليلان، قصر تل الرماح. وأكد الباحث على نقطة مهمة ومن الناحية العلمية يعتبر قصر ماري الملكي أكثر أهمية من القصور الأخرى التي يدرسها هذا الباب، والسبب في ذلك أنه محفوظ جيداً ويحوي ترتيبات مهمة تساعدنا في تحديد وظائفه، ما يمكننا من تقديم صورة واضحة عن العمارة الملكية في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني في بلاد الرافدين.

بينما في الباب الأخير يتقدم باحثنا بمقارنات بين القصور الرافدية للفترة التي خصصها البحث وأشرنا إليها أعلاه وبين القصور التي تنتمي إلى الحضارات المجاورة من جهة أخرى. لافتاً إلى أن هذا الباب يتألف من ستة فصول: تقنيات البناء، الإضاءة، الطابق العلوي، العلاقة بين عالم القصر والعالم الخارجي، الوظائف الرئيسية للقصور الرافدية المؤرخة بعصر البرونز، دراسة مقارنة بين قصور عصر سلالة أور الثالثة والعصر البابلي القديم، وبين القصور الشرقية الأخرى والقصور الرافدية من فترات أخرى.

مصاعب ومشكلات

في نهاية الحديث لابد أن نسلط الضوء على المصاعب التي واجهت الباحث خلال دراسته، والتي تعلّق أولها بعدم استكمال أعمال التنقيب في بعض القصور، حيث لن يتمكن الباحث في هذه المرحلة من أن يعرف المساحة الحقيقية لهذه المباني، وعدد أجنحتها، ووظائفها الحقيقية، ولا يمكن أيضاً تحديد أماكن بواباتها. في حين المشكلة الأخرى التي واجهت د. حسان عبد الحق في هذه الدراسة تتمثل في حالة الحفظ السيئة لعدد من المباني أو لبعض أجنحتها، ما صعّب عليه معرفة وظائفها ومساحتها وطريقة اتصالها بالأجنحة الأخرى، خاتماً بتمنياته أن يساهم بحثه هذا بتقديم دراسة مميزة عن القصور وبأن يضيف للأبحاث التي قدمها الآثاريون والمؤرخون عن الأبنية الرافدية الجديد والمفيد.

«صخرة الجولان» لعلي عقلة عرسان

رواية حرب تحدد سبل المواجهة على أكثر من صعيد

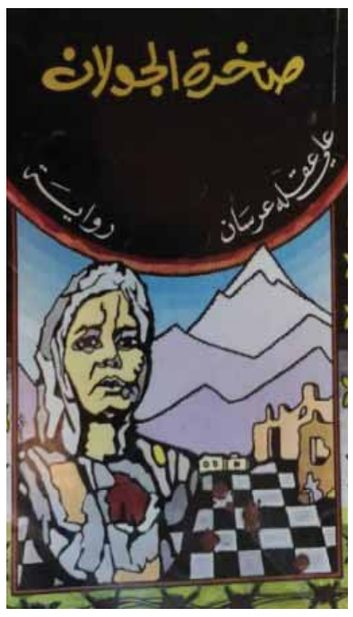

| إسماعيل مروة

عندما نقف عند كاتب بمكانة علي عقلة عرسان، فهذا الوقوف يستوجب علينا أن نحدد معالم الرجل وقضاياه، إذ لا تمثل روايته الجيدة (صخرة الجولان) طفرة في كتاباته وأدبه، وليست مرحلة صحوة، وليست كذلك رواية مناسبة صيغت في حرب تشرين، وليست تمجيداً للبطولة كما يزعم كثيرون، وكما يوهم اسمها.

علي عقلة عرسان مسرحي ومخرج وشاعر قبل أن يكون روائياً وباستعراض أعماله إبداعية ودراسات، فإننا نجد أن الكاتب أعطى ذوب أدبه للقضايا العربية والقومية من مسرحيته فلسطينيات، إلى مسرحيته الغرباء، إلى مسرحيته الأقنعة، ففي كل نص من هذه النصوص دون علي عقلة فاصلة من فواصل التاريخ القومي والوطني.

وفي دراساته ابتداء بـ«الظواهر المسرحية عند العرب مروراً بسياسة في المسرح والعار والكارثة وأيام في شرق آسيا كان علي عقلة عروبياً منتمياً خالصاً، حيث حاول تعزيز وجود المسرح العربي، ونذر قلمه للدفاع عن العروبة في وجه الهجمات الاستعمارية التي استهدفته.

هذا يعني أن علي عقلة عرسان ليس كاتباً يحتفي بالمناسبات، وإنما هو كاتب منذور للقضايا الفكرية والقومية، وقد أخذ عليه بعضهم إثقاله النص الأدبي الإبداعي بالفكر والطروحات السياسية، وذلك لم يمنعه من متابعة مسيرته ورحلته كما أراد وكما صاغ فكره لبنة لبنة.

أما روايته صخرة الجولان، فهي روايته الوحيدة، وقد تناقشت فيها معه، وعبرت له يومها أن العنوان كان من المفترض أن يكون مختلفاً حتى لا ينظر إليها النقاد على أنها مرهونة بحدث أو سياسة، فاستغرب وأصر، وقال لي: إنها صخرة الجولان، والصخرة في الجولان، ولا بديل عن الجولان السوري، فمن شاء أن يحكم على النص من عنوانه فليفعل، وتمسك بعنوانه وروايته وطروحاته فيها.

صخرة الجولان والتوقيت وقعت حرب تشرين عام ١٩٧٣ في السادس من تشرين، وقد صدرت عشرات الكتب التوثيقية، والروايات والكتب بعدها مباشرة، وبعضها تحول إلى وثائق ومصادر تاريخية وحسب، ومن الصعوبة بمكان أن نجد أثراً من هذه الآثار في مصاف الأدب اليوم، وإن كانت رواية حنا مينه المرصد قد احتفظت بمكانة مقبولة في أدبه الروائي، والأدب المعني بحرب تشرين.

تابع عرسان الحرب بمقالات ومتابعات، وبتمثيليات إذاعية، ولكن روايته تأخرت في الصدور حتى عام ١٩٨٣ أي بعد عشر سنوات من الحرب، وفي المقياس النقدي يعد هذا التوقيت لصالح العمل الروائي، إذ أخضع الروائي نصه للتقليب والتخمير حتى استوى رواية بعيدة عن العاطفة المباشرة والارتجال، وظهر ذلك جلياً في إحدى بيئات الرواية، وهي المعتقلات التي كان الكيان الصهيوني يخضع الأسرى فيها للتحقيق، ومن متابعتي وجدت أن هذه البيئة لم تكن ناجحة التصوير وصحيحة إلا عند عدد من الكتاب الذين عانوا الأسر، وعند علي عقلة عرسان، لأن المسافة الزمنية بين الحرب ونشر الرواية كانت كفيلة بإظهار صورة أقرب للدقة من خلال روايات الأسرى العائدين من سجون الكيان الصهيوني، ما أعطاه مصداقية ووثوقية.

البيئات وتعددها

كانت الرواية رواية فكر مقاوم أكثر من أن تكون رواية حرب، لأن الكاتب فيها اختار مجموعة من البيئات المتعددة، سواء كانت البيئة استرجاعاً أو تصويراً مباشراً في مواقع القتال، أو في سجون الاحتلال، أو في القرية التي خرج منها المقاتل متوجهاً إلى ساحة المعركة، وقد أجاد في رسم البيئات المتعددة، خاصة البيئة الريفية التي خرج منها المقاتل، إذ رصد الكاتب التحولات الاجتماعية، وآثار الحرب، والنوازع الاجتماعية.

التشريح الاجتماعي

يستثير حميتك وغضبك ما تعامل به أهل القرية مع زينب زوجة المقاتل في أثناء غيابه، سواء كان ذلك صادراً عن البائع الطماع اللا أخلاقي، أو من المحيط بشكل عام، ولكن هذا التشريح الاجتماعي كان عنصراً بارزاً في رواية علي عقلة عرسان، إذ ابتعد عن الطوباوية والشعاراتية، ولم يعقم المجتمع كما فعل كثيرون ممن تناول مجتمع المقاتل الشهيد، فأبرزوا المجتمع سليماً معافى معقماً، وكأن المجتمع كتلة واحدة في مواجهة العدوان، لكن فعل الأنسنة والبشرية الذي أراده علي عقلة عرسان، وخدمته في إظهاره طول المدة بين الحرب والكتابة جعلت الرواية أقرب إلى المنطق، وإلى سيرورة الحياة، وجعلت منها رواية تحمل فكراً مقاوماً، وربما تلمح إلى ضرورة معالجة أمراض المجتمع لمواجهة العدوان الخارجي، وأي عدوان خارجي لا يمكن أن يواجه إلا بعد معالجة الأمراض الداخلية، لذلك كان محمد المقاتل يواجه العدو ويقاتل، وكان يدفع الضريبة من أسرته وجوعها، وزينب وسمعتها، وهو في الصفوف الأولى، يتشبث بصخرة الجولان ويأبى أن يغادرها.

وقد قدم عرسان البيئة الاجتماعية على حقيقتها، فانقسم الأمر عنده إلى:

– صاحب العمل الذي كان حادباً وحنوناً على زينب وأولادها، والذي كان يقدم لها العون، والذي لم يستطع أن يتخفى وراء نبله ومساعداته، وعندما علم أن محمد المسعود أسير انتابه الحزن، لأنه كان يأمل بأن تكون زينب معه ليتابع حنانه على أولاد محمد.

– البائع السيئ الذي تظاهر بالمساعدة، ولكن كان يطالب زينب بما يترتب عليها من دين بعد أن يحاول إغراقها بالدين، لعله يصيب منها ما يريد، وقد صوّر عرسان شهوة هذا الرجل ودناءته ببراعة، خاصة عندما يقابل نحرها ويريد أن ينقضّ على بياضها.

«وراح أحمد الحسن يحلم متلذذاً باستعادة ملمس يد زينب، وتأثير لمعة نحرها الأبيض وقوامها الممشوق».

– أم سليمان تلك العجوز التي ترضخ لطمعها، وعروض أحمد الحسن محاولة أن تجعل أحمد الحسن ينال من زينب مقابل أعطياته لها، وتفعل فعلها مذكرة القارئ بدور العجائز في قصص التراث العربي، وعلي عقلة عرسان هو صاحب مقولة «المرأة مفتاح المرأة لرجل».

– مجتمع قرية كحيل التي منها محمد المسعود، هذا المجتمع القائم على الحكايا والإشاعات، وتفاعله مع الأخبار القادمة من هنا وهناك، ولكن دون أن يلتفت إلى دوره تجاه هؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل البلد والتراب.

الأسر والتحقيق

يقدم لنا عرسان عالم الأسر على حقيقته، وهو الذي تأخر في صياغة روايته، وربما أخذ هذه التفاصيل في عالم الأسر من خلال العائدين إذ ينقسم المحققون إلى فئتين، فئة قاسية وأخرى تظهر الحنان المصطنع، ويكاد محمد المسعود يتعاطف مع المحقق الذي يظهر الحنان، لكنه لا يعرف شيئاً ولا يملك شيئاً ليقوله، وحتى الأشياء التي يعرفها يعجز عن قولها لأن الضمير حاضر في وجدان المقاتل مبتور الساق الواقع في الأسر الممض القاتل.. وينهال عليه المحقق اللطيف بأنواع من التعذيب لم يكن يتخيلها بعد أن يفقد الأمل منه ومن الحصول على أية معلومة.

رواية صخرة الجولان رواية وحيدة لكاتبها المسرحي علي عقلة عرسان، وهي رواية مهمة عن تشرين وحربها، وعن المجتمع العربي وتشريحه ومفهومه للحرب والقتال، وعن العلاقة التي تربط الإنسان بالأرض، فما من شيء يعادل الأرض عند العربي مهما حصل.

«أعداء الديمقراطية الحميمون» في الخصائص المجتمعية وتمايزها

| جُمان بركات

ستبقى مسألة الحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة والنظم السياسية الشغل الشاغل للمفكرين في العالم، وثمة وجهات نظر لتزفيان تودوروف مؤلف كتاب «أعداء الديمقراطية الحميمون» –ترجمة د. مناف عباس ومراجعة د. جمال شحيد– الذي عاش في أنظمة مختلفة وأزمنة انتقالية عاصفة.

إنه كتاب جدير بالدراسة والبحث، ربما من المفيد ألا يصل الفكر الإنساني إلى إجابات نهائية عن هذه المسائل، فهي في منحى تطوري مستمر وما يهددها في هذه المرحلة هو تناقضها الداخلي في البلدان التي طبقتها. لهذا السبب نجد أن قراءة هذا الكتاب تشكل فائدة معرفية لدوحة الباحثين والمهتمين بالشأن العام في عالمنا العربي.

الديمقراطية

يعرف الكاتب النظام الديمقراطي بأنه مجموعة من الخصائص المجتمعة التي تكوّن مركباً معقداً تتمايز في داخله حدودها وتوازناتها بشكل متبادل، ومن دون أن تكون العلاقة بين هذه الخصائص علاقة تضاد متقابل فيما بينها إلا أنها تختلف في منشئها وغاياتها، أما في حال اختلال التوازن الذي ينظمها فلا بد حينها من إطلاق صفارات الإنذار.

الديمقراطية هي النظام السياسي الذي تعود فيه السلطة إلى الشعب وفقاً لمعنى أصل الكلمة أما على صعيد الممارسة فيقوم الشعب بمجمله باختيار ممثليه الذين يصنعون القوانين ويحكمون البلاد بشكل سيادي إبان فترة من الزمن محددة مسبقاً، وتمتاز المجتمعات الديمقراطية عن غيرها من المجتمعات التقليدية التي تؤمن بالالتزام بمبادئ الأسلاف أو حتى عن أنظمة الحكم الفردي المطلق الذي يقوده ملك ذو حق مقدس، ويكون تتالي الحكام فيه أمراً منوطاً بانتمائهم إلى الأسرة ذاتها، أما شعوب المجتمعات الديمقراطية فهي لا تخضع لمفهوم التجانس «الطبيعي» فهي تختلف ليس كمّاً فحسب بل نوعاً أيضاً عن الأسرة والعشيرة والقبيلة حيث يسود رابط القربى على ما سواه كما هو الحال لدى كل كيان جمعي قائم على حضور إحدى السمات المميزة كالعرق أو الدين أو اللغة الأم، كل من وُلد على الأرض نفسها يشكل جزءاً من شعوب هذه الديمقراطيات إضافة إلى أولئك الذين قبلوا على يدهم، ففي قلب المجتمعات الديمقراطية، أو نظرياً على الأقل، كل المواطنين متساوون في الحقوق وكل السكان متساوون في الكرامة.

تكون الديمقراطيات الحديثة تحررية عندما يترافق المبدأ الأساسي الأول هذا مع مبدأ ثان وهو حرية الأفراد، أما فيما يخص الشعب فيتمتع بالسيادة وأي خيار غير ذلك يهدف إلى إخضاعه لقوة خارجية لكن تبقى سلطة الشعب محدودة حيث تتوقف عند حدود الأفراد الذين هم أسياد منازلهم.

سجال قديم

يسلط الكتاب الضوء في حقبة من الماضي على أحداث قصة قبل نحو ألف وستمئة عام بدأت من روما عندما بدأ الدين المسيحي يقترب من السلطة السياسية حيث اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية وأصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الرسمي مانعاً بذلك ممارسة الطقوس الوثنية، وبعد استعراض عدة أسماء من تلك الحقبة يلخص بالقول: لا مونتسيكو ولا روسو يعتقدان بأن للإنسان أن يُعرف بشكل دائم بامتلاكه منطقه الخاص وبخضوعه لما تمليه عليه إرادته، ويتبع ذلك أن كل حلم بالكمال على طريقة بيلاجيوس هو أمر محرم بالنسبة إليهما، ويدين مونتسكيو الاستبداد، إلا أن المبدأ الذي يطرحه لمواجهته هو الاعتدال والتوازي بين السلطات وليس مبدأ سيادة الفضيلة، أما روسو فقد توصل إلى نتيجة مشابهة عبر طريق مختلف تماماً أقرب إلى الاستسلام منه إلى الخيار، ويجب التذكير هنا بأن «العقد الاجتماعي» لا يوصف حالة طوباوية من الواجب تحقيقها، وإنما مبادئ الحقوق السياسية التي تتيح دراسة الدول القائمة والحكم عليها، في الوقت عينه لا يكف كلاهما عن المطالبة بحق الإنسان في اختيار تصرفاته بشكل حر، والكتاب ليس بصدد نكران هذا الاندفاع وإنما الإشارة إلى حدوده الدائمة والتقيد بهذه الحدود، في الواقع يتقبل مفكرو الأنوار هؤلاء ابتعاد العالم وكائناته عن الكمال دون أن يدفعهم ذلك إلى التخلي عن تحسينهم غير أنهم وعوضاً عن انتظار حلول النعمة الإلهية يفضلون دعوة البشر كي يضطلعوا بذلك بأنفسهم، وهم يحبذون لذلك القيام بخيار وسطي يرفض القدرية المحافظة تماماً كما يرفض حلم السيطرة الشاملة، إن الفكر الإنساني بمعناه الحرفي يقوم على هذه الرمزية المزدوجة بمشاركته مذهب الطوعية والاعتدال في آن معاً:

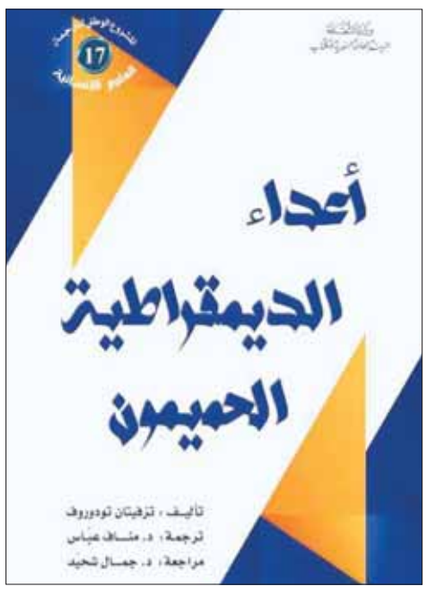

إذ إن الأفضل ممكن الحدوث لكن الجيد يبقى بعيداً عن متناول أيدينا.

الخلاصة السياسية

يصف هذا الكتاب بمفردات بليغة الظروف المعيشية للطبقات المستغلة التي أصبحت سلعة بحد ذاتها، كما أنه يمثل الحلم بالوصول إلى المجتمع الكامل المشترك بين جميع أفراده، يقوم التحليل الذي يقدمه هذا الكتاب للمجتمعات السابقة على فرضية أن الصراع هو النسق الوحيد للتفاعل الاجتماعي الذي يتميز به تاريخ البشرية: من ذا الذي سيستحوذ على السلطة ويستخدمها من أجل استغلال الآخر؟ كما أنه لا شيء مشترك بين جميع أفراد هذه المجتمعات، فكل الأشياء تعود ملكيتها لأحد طرفي النزاع فقط.

عبارة باسكال الشهيرة تقول «من يرغب الظهور كملاك في هيئته كان شيطاناً في باطنه»، والمقصود أن ليس النظام العالمي في وضع أفضل حين يُسمح لمجموعة من البلدان بفرض إرادتها على الآخرين دون حدود، وتصبح حينها غواية الوقوع في المبالغة كبيرة للغاية مع احتمال تشويه صورة الديمقراطية في عيون أولئك الذين يروجون لها.

طغيان الأفراد

في الصراع ضد الشمولية، كانت الديمقراطية تواجه قوى تخمد حرية كل فرد، كان ذلك يمثل حالة تضخم لما هو جماعي على حساب الفردي، وكان هذا الجماعي خاضعاً لثلة قليلة من طغاة الحكّام، إلا أن أحد التهديدات التي ترزح تحتها الديمقراطية في العالم الغربي اليوم ليست نابعة من توسع مفرط للجماعة، بل هي تكمن بالأحرى في التقوية غير المسبوقة لبعض الأفراد الذين يعرضون بدورهم خير المجتمع برمته للخطر.

يقول بنجامين كونستان في إحدى كتاباته السياسية: «إن الاستقلالية الفردية هي أولى الحاجات الحديثة»، ففي رواية أدولف تدافع كتاباته السياسية والنقدية بحرارة عن فكرة استقلالية الفرد، إلا أن مبحثه الإنسانوي الموجود في تخيلاته وكتاباته الخاصة ومؤلفه الكبير حول الدين تقدم جميعها فكرة مختلفة عن الكائن البشري، يولد هذا الأخير في قلب المجتمع الذي كان قبله ومن ثم «ليس تطور الذكاء بحد ذاته إلا نتاج المجتمع» هويته علائقية إذاً بجوهرها: فالإنسان دائماً بحاجة للارتباط العاطفي وكل شيء في الحياة يتعلق بالتعامل بالمثل، وإن أردنا إيجاد حالة مثالية تنحو نحوها حياة الأفراد فستكون ممثلة بالحب أكثر منها بالحرية، وكما كتب كونستان في رسالته إلى إحدى صديقاته: «دائماً ما كانت الكلمة والنظرة والمصافحة تبدو لي مفضلة على المنطق وعلى كل عروش الأرض».

آثار النيوليبرالية

يبدأ الفصل الخامس بسؤال مهم جداً، هل أخطأ العلم؟ هناك قلق في حياة الديمقراطيات المعاصرة، ودون أن تكون نابعة بشكل مباشر من الأيديولوجيا النيوليبرالية، إلا أن هذه الأوجه تكسب أهمية جديدة ضمن القالب الذي تفرضه هذه العقيدة، إن الوقائع بحد ذاتها معروفة للجميع إنما مغزاها الشامل هو ما يشغلنا في هذا الكتاب.

وفي الفصل السادس يسلط الكتاب الضوء على الشعبوية ومعاداة الأجانب ليتوصل إلى نتيجة أن هذه الأيديولوجيا مدفوعة بالحاجة إلى إيجاد تفسيرات سهلة ومفهومة لكل ما يؤرق الحياة اليومية، تعمل على صنع خصم معروف تحمّله المسؤولية عن كل مصائبنا، وباستفادة الشعبويين من الآن فصاعداً من وسائل التواصل التي تتفوق على وسائل الماضي بما لا يقاس في عالم أضحى اليوم غير مفهوم للإنسان العادي، فإنهم حصلوا على حظوظ كبيرة في إقناع الجمهور بوصفاتهم السحرية والوهمية بالمقدار نفسه، هم يرفضون أن يوجهوا أنظارهم خارج إطار الحاضر، ويفضلون تجاهل وجهات النظر المتعددة وتصارع المصالح وعدم تجانس المجتمع، على الرغم من أن تحدّثهم في كل لحظة باسم الشعب يؤدي إلى تحويل الديمقراطية عن وجهتها الحقيقية معرضين إياها لخطر كبير على غرار ما فعله معتنقو الخلاصية والليبرالية الجديدة.

وعن مستقبل الديمقراطية يختم الكاتب كتابه «مستقبل الديمقراطية» بالقول: نحن جميعاً، سكان كوكب الأرض منخرطون اليوم في المغامرة عينها ومحكوم علينا بالنجاح أو الفشل معاً حتى وإن كان كل فرد منا عاجزاً أمام هول التحديات، فإن ذلك الأمر يبقى حقيقياً.